

تحديد الخريطة الشعرية في الأدب الشعبي ومزاياها في البحث الميداني

د. لوصيف لخضر

جامعة زيان عاشور - الجلفة -

الجزائر

الملخص بالعربية:

يعد تحديد الخريطة في أي بحث ميداني من الأمور التي دعت إليها مناهج البحث الميداني الحديث وآلياته لما يوفره من جهد ووقت معًا، كما تزيد الباحث معارف فائقة تتجاوز معرفته للنص وتتعداها إلى فهم ما يحيط بهذا النص من ظروف وأسيقة ومعارف خفية وربما مثيرة للجدل وخاصة إذا كان الباحث من خارج دائرة البحث.

Abstract:

Defining the map in any research field is considered as one of the things that the modern scientific methods called for, due to the time and efforts it reserves/ It also enhances the research's knowledge of the subject matter, and it goes beyond to understanding the context of the text and its circumstances, that might be controversial if the research is out the research domain.

لقد سجل التاريخ الكثير من الفنون، ولكنه لم يسجل للإنسان العربي ما يداني فن الشعر، لأنه من أرقى الفنون، وأوفاه ترجمته للواقع، واستسمح القارئ والسامع على حد سواء بأن لسيادة الشعر كفن عربي عامة، وأشعر الشعبي منه خاصة إنما هو للبداءة، وليبئات البدو، لأن هذه البيئات ما زالت وستظل متقلة لا تسمح بسيادة أي فن سوى الفن القولي الشعري، لأن الطبيعة التي يحياها البدو لا يلائمها إلا الشعر باعتباره الأكثر قابلية للحفظ بما يتمتع به من إيقاع خاض ميسر له.

وإذا كانت المنهجية الحديثة تدعو إلى البحوث الميدانية وتعول على خرائطها وميادينها لاستخلاص نتائج يصعب الاختلاف حولها معتبرة إياها تنمة أو مصادقة على ما هو نظري يمكننا طرح السؤال التالي:

هل الحديث عن الشعر الشعبي هو حديث شبيه بالحديث عن الشعر عامة ؟ أم هو حديث عن نوع شعري يحتاج إلى ميدان تضبطه نقاط أو إشارات ومعالم فنية فاصلة؟؟
لقد مر الشعب الجزائري بفترة استعمارية عسيرة، ولم يكن الجزائريون وقتئذ يعرفون إلا ما يقوله الشعراء الشعبيون أو المداحون الذين يريدون تمرير رسائل ثورية في الأسواق، لأن هؤلاء الشعراء لم يكونوا يتغنون بهذه الثورة خارج مكانها وزمانها وإنما كانوا بطبيعتهم الشعبية، وانبتاقهم من طبقات الشعب يقولون ومن نقطة التماس مع المعركة مما جعل أقوالهم الشعرية تكاد تكون حقائق وشواهد ووثائق تساعد المؤرخين وكتاب التاريخ على حد سواء بمنطقة المعركة دون سواها.

ويرى الدرس التاريخي مثلما يرى المصنفون وأصحاب الأطاليس أن الباحث في التاريخ يهتم أساسا بجغرافيا المعركة وبصناعها وبإحداثها ومجرياتها ووصولاً إلى نتائجها التي لا تحصرها أو توصل إليها بسرعة إلا جغرافيا البحث.

وإذا أردنا الذهاب إلى أبعد من ذلك فإن الدرس اللغوي كان قديماً يرى أن العرب وفي أيام بحثهم عن الأعراب والفصحاء وجمع المادة من الأفواه الفصيحة كانوا قد اجمعوا على أن

د. لوصيف لخضر تحديد الخريطة الشعرية في الأدب الشعبي ومزاياها في البحث الميداني

البصريين اسبق من الكوفيين دراسة للغة وأقدم منهم قياما بالاستقراء فكان >> لأهل البصرة قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية¹<< غير أن الكوفيين عارضوا البصريين في صحة الأساس الذي بني عليه استقراؤهم، فاختلفت المدرستان، وأصبح لكل مدرسة أطلسها اللغوي في الاستقراء والرواية والنقل²..

وإذا أردنا العودة إلى اقرب من هذا من حيث الزمن فإن المحققين والمصنفين يكادون يجمعون حسب المصنف صفي الدين الحلي (677هـ/750هـ) بأن حظ فنون النظم العربي غير المعر أكثر حظا من فنون النظم العربي المعرب³.

وعلى الرغم من هذه الحقائق فإن حظ الأدب الشعبي دراسة وتحليلا كانت ولا يزال حقله أو ميادينه قليلة جدا مقارنة بحقول وميادين العلوم الإنسانية الأخرى، ولم يرق مستوى المجهود المبذول فيه إلى مستوى خرائط الوطن العربي الواسعة والمتنوعة، مما يجعل السواد الأعظم من القبائل العربية الضاربة في البداوة مهمشة أو مغيبة إذا لم اقل مجهولة مجتمعا وثقافة وآدابا، وربما ما يعد من الصعوبات المفقلة للبحث الميداني في الأدب الشعبي هو عدم تهيئة مجاله بدراسات قبلية كانت قد نظمت ورسمت له خرائط فنية تزيد من رغبة فرق البحث اللاحقة ومخابرها..

وقبل الحديث عن مزية أو قيمة الخرائط الفنية ودورها في البحوث الميدانية لأدبها الشعبي نود أن نعرض بعضنا من مشاكل هذا النوع من الأدب لنقترب في ضوءها على بعض الحلول:

أولا: إن الباحث في الأدب الشعبي-مثلا- هو طالب متخصص في اللغة العربية وآدابها، وهو دارس للشعر العربي عبر عصوره المختلفة، وغير مهيء تماما لدراسة هذا النوع من الأدب مما يجعل دراسته يشوبها في كثير من الأحيان الخوف وعدم الاطمئنان.

ثانيا: عدم مراعاة المؤسسات الوطنية المكلفة بالتقسيمات الإدارية في الوطن العربي على الإطلاق الخصوصيات الثقافية والاجتماعية للمجتمع الموجود داخل الدائرة الإدارية الواحدة وما

يجمع أفرادها وجماعاتها من مكونات ثقافية مشتركة أو من عادات وتقاليد⁴، إذ يصطدم الباحث في كثير من الحالات داخل الخريطة الشعرية بمجتمع مركب من مجتمعين يمثلان ربما أغلبية وأقلية، أو من مجتمع حدودي يتخطى بثقافته بلدانا شقيقة فيكون قد أعطى واخذ عنه، وهو ما يجعل الباحث في حرج أثناء إصدار الأحكام تجاه جماعته التي تربطه بها علاقات خاصة وفي حرج أكثر تجاه الجماعة الأخرى وخاصة إذا كان الموضوع المدروس والذي تحدده الخريطة يطرح قضايا حساسة وأخرى مثيرة للجدل⁵.

- وإذا كانت هذه المشكلات قد أصبحت واقعا موجودا ومفروضا يتجاوز صلاحيات الباحثين والمهتمين ويتعداها لأنه من صلاحيات مؤسسات سيادية عليا متجاهلة ما يوفره للدارس في كل الميادين، فإننا نرى أن لتحديد الخرائط في البحوث الميدانية مزايا كبرى يمكننا إيجازها فيما يلي :

1/- أن تحديد الخريطة في بحث ميداني يعد من الإجراءات المنهجية التي تحرض على فرضها المؤسسات التعليمية العليا وتعتبرها آلية هامة لضمان نتائج أكثر دقة، كما تجنب الباحث من كل أشكال التعنيم، وتحميه من الآراء المحتملة.

2/- إن عدم تحديد الخريطة في البحوث الميدانية هو صرف لطاقة الباحث وتشتيت لمجهوداته على مساحة واسعة مركبة ومتنوعة ومعقدة رغم انسجامها السطحي الظاهر للعيان.

3/- إن خريطة البحث المحددة تقضي كثيرا على كل أشكال التداخل والتشابك بين النصوص من حيث طبيعتها ومصدرها الاجتماعي والثقافي والفني.

وتأكيدا لكل ما سبق ذكره من حديث عن الخريطة الفنية في القصيدة الشعبية وأهميتها في البحث الميداني، فإن الواقع الشعري بالهضاب العليا والمناطق السهبية الجزائرية يكاد يكون أحسن تحقيق لميدان الشعر الشعبي الجزائري وأوسع في الوطن العربي، لأنه وبواسطة قصيدة الملحون الجزائري يمكننا أن نرسم خريطة جغرافية شعرية بحدود فنية تبين ملامحها لغة الشعر وصوره وموسيقاه⁶.

د. لوصيف لخضر تحديد الخريطة الشعرية في الأدب الشعبي ومزاياها في البحث الميداني

فعلى مستوى اللغة - مثلا- نجد لفظة نداوس⁷ والتي تعني في لغة المنطقة المدروسة المخاصمة، إذ وردت في شعر احد شعراء مسعد اثر مساجلة بينه وبين شاعر قصر الشلالة عيسى بن علال فيقول⁸:

كي ندوسو تضحك الناس تبكيك تتكبر يامليك ما درت جرايم

وبالدلالة اللغوية الاجتماعية نفسها نجد اللفظة واردة في قول الشاعر والإمام سي لخضر فيلالي إذ يقول معاتبا قلبه يدفعه كثيرا إلى الزلات والمخاطر فيقول⁹:

انداوس في قلبي وهو يتبلى ويحمل فيا للوعر صعب حالوا

- أما من حيث الإيقاع الشعري فإننا نريد أن نفصل في الأذهان بين الإيقاع والعروض، لان ميدان العروض هو القصيدة العربية العمودية الكلاسيكية القديمة إذ اثبت رواد علم العروض وبرهنوا (بطريقة رياضية على تكافؤ التقنين العربي بواسطة الحرف والتقنين المقطعي¹⁰) .

في حين نجد ميدان الإيقاع هو كل الأشعار المكتوبة باللغات الأخرى بما في ذلك الموشح والزحل والشعر العامي العربي والملحون ألمغاربي، لقد باء مجهود الباحثين فيه بالفشل إذ بحث فيه الكثير دون الوصول إلى ما توصل إليه الخليل وزادوا أعلى أوزانه من الأوزان ما لم ينحصر.¹¹

وإذا بحثنا في الواقع الشعري الجزائري بالهضاب العليا والمناطق السهبية وبتطبيقنا لنظام المقاطع والذي له ما يكافؤه في اللغة والعروض من مقاطع لغوية ومقاطع عروضية متزايدة الطول، فإننا نجد رقعة جغرافية شعرية واسعة تكاد تكون الأكبر في الوطن العربي لان شعرها يتحكم فيه نظام مقطعي دقيق يصل بدقة إلى العشرة مقاطع، إلا أن السكون يتزايد فيه أو يتضاعف في المقطعين الخامس والعاشر أحيانا¹².

كما أضاف لنا الباحث الميداني على مستوى الدراسة الصوتية بهذه المنطقة أن الجهاز الصوتي للناطقين بها يكادوا يخلو من صوت (الغين) مخرجا وصفة، إذ أن الناطق بالهضاب

د. لوصيف لخضر تحديد الخريطة الشعرية في الأدب الشعبي ومزاياها في البحث الميداني

العليا الجزائرية وسهوبها يخرج (الغين) من المخرج وبالصفة نفسها لـ(القاف)، إذ يلاحظ على المدرس والمتمدرس يكتبان (الغين) غينا وينطقانها (قينا) على حد سواء.

ولا مجال لنا هنا لنعلق على هذا السلوك اللغوي الذي فطر عليه أبناء هذه الخريطة الواسعة، لأنه يتعذر على أي متكلم فيها أن يفرض على نفسه أدنى رقابة ذاتية ليخرج (الغين) من حيزه وبصفته لان البيئة علمته بالفطرة أن يكتب (الاغواط) اغواط فينطقها اقواط¹³ أما الذي يستحق التعليق فهو أن أي كلام يتخلله نطق بالغين غينا يعتبر الناطق به مخالف لفطرة البيئة، وخارج عن مألوف اللغة بالمنطقة وما تتميز به لغتها صوتيا، وربما - في رأينا - مخالفة هذه الفطرة في النطق هي تمرد على الخصائص العامة للغة المنطقة كما يصفها لنا الدرس اللغوي الحديث، لان هذه الظاهرة ما هي إلا سلوك لغوي يحسب على إقليم جغرافي واسع في الجزائر وعلى خصائص كلام ساكنة الهضاب العليا الجزائرية وسهوبها.

وإذا أردنا قراءة قول الشاعر البوسعادي (عبد القادر لمنوي) وهو يرثي ابنته اثر موت مفاجئ إذ يقول¹⁴:

يا بنتي جرحي جمارو ما تطفئ هزمتني ليام قصببت بقضاها

فكلمة (قصببت) بالقاف تعني بدلالة لغوية اجتماعية (فاجأتني) ولكنها وبدلالة لغوية محضة فأصل الكلمة (اغتصببت) والتي تعادل في اللغة المجازية معنى ولفظا : (اغتصببت الموت ابنتي) تعني اختطفها بقوة. وفي الأخير فان تحديد الخريطة الشعرية في البحوث الميدانية يعد من الأمور التي دعت إليها مناهج البحوث الحديثة والياتها وصادقت عليها لأنه موفر للجهد وللوقت معا، كما يعفي الباحث من المعارف الفائقة التي تتجاوز فهم النص وما يحيط به من ظروف واسيقة ويتعداه إلى معارف خفية ومركبة وربما مثيرة للجدل وخاصة إذا كان الباحث من خارج ميدان هذا البحث.

مصادر البحث ومراجعته:

1. القفطي: أبناء الرواة تحقيق محمد ابن الفضل إبراهيم -دار الكتب المصرية-القاهرة 1950، ج2 ص 258.
2. محمد حسين آل ياسين -الدراسات اللغوية عند العرب حتى نهاية القرن الثالث-منشورات دار مكتبة الحياة-لبنان 1980، ص228.
3. إن حركة الاهتمام بجمع المأثورات الشعبية أتاحت الكثير من الوقائع النصية التي تتجاوز هذه التصنيفات.
- ويرى المصنفون أن هناك أصنافا أخرى يمكنها أن تضاف إلى غير المعرب (الملحون). هو ما أنتجت الجماعات الشعبية، ولذلك لابد من التعويل على الإحصاء بعد الجمع والتصنيف.
- طالع: العاقل الحالي والرخص الغالي - تحقيق الدكتور: حسين نصار - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1981، ص2-3.
4. التصوف في الشعر الشعبي الجزائري (عدد خاص) طبع دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع.-2007، ص69.
5. المرجع نفسه-ص 70.
6. V vannier l'esprit et les mœurs d'une nation d'après la langue revue pédagogique tom 02-1907 paris
7. وهي من >> داس-يدوس-دوسا- دياسا- دياسة، وداس الشيء وطنه برجله وداس الرجل أدله>> انظر محيط المحيط ل: بطرس البستاني ص 299.
8. التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي في الثورة- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1983.
9. لخضر لوصيف- قصائد منسية من ملحون المدينة-طبع دار أسامة للنشر والتوزيع الجزائر-2007، ص30.

د. لوصيف لخضر تحديد الخريطة الشعرية في الأدب الشعبي ومزاياها في البحث الميداني

10. مصطفى حركات- كتاب العروض- طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغاية الجزائر-1986، ص28

11. تقي الدين أبو بكر حجة الحموي- بلوغ الأمل في فن الزجل- تحقيق رضا محسن وزارة الثقافة السورية- دمشق-1974.

12. ويمكن للقارئ الوقوف على حقيقة مذهبنا ايه من خلال هذه العينات الشعرية لشعراء من نقاط مختلفة من الهضاب العليا والسهوب الجزائرية، وهذا شاعر الجلفة المرحوم احمد بن معطار مثلاً يقول:

الله لا تراس يقدي متكلف مولا دعوة خير يقدي ببريات

انظر: التصوف في الأدب الشعبي ص 91.

كما يقول أيضا شاعر الاغواط الفحل :

جيتك رافع شكوتي يا قاضي الحب وتغيث المضيوم داخل تحت حماك

انظر: ابن كريو (ديوانه) ص 90 .

وعلى الإيقاع نفسه يقول بوديسة القصاروي (جنوب المدية).

ياولفي راك عملت دونيا ماني ملا عاهنة قلت نعاديك

قصائد منسية من ملحون المدية ص50.

كما يقول الشاعر الجوال الشيخ السماتي من سيدي خالد :

ياجلفة يهديك جينا حواسين شديتينا للقضا والوقت حان

أحمد لمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، ص: 40

13. التصوف في الشعر الشعبي الجزائري (طالع مقالنا الجلفة بين خريطتين) طبع دار

أسامة للطباعة والنشر والتوزيع.-2007، الجزائر ص72 .

14. المرجع نفسه، ص 71.